بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الجمعة بعنوان: الإيمان هو الأصل

ألقاها سماحة الدكتور عبد الحميد عشاق حفظه الله تعالى

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على الحبيب المصطفى، وآله وصحبه...

وبعد، ما مِن مسلم إلا وتأتي عليه أوقات يتحسّر فيها على حاله، ويتملكه شعور بالخوف أن يلقى الله عز وجل على حال من التفريط والانتكاس. فقلوب المؤمنين مهما بلغت قسوتها، فإنها تتقطع حنينا إلى الله تعالى، وشوقاً إلى طاعته، بيد أن كثيراً من الناس يُغلَبون على أنفسهم، وتستغفلهم الهوامش الصغيرة في بيداء الحياة.

وكثيراً ما يتساءلون: كيف نرتقي بأنفسنا؟ وكيف نستقيم على الجادة؟ وكيف نصل إلى بر الأمان، ودار السلام؟

والجواب باختصار، وأقول باختصار؛ لأننا في هذا المقام أحوج إلى هدي عملي منا إلى بحث نظري على غرار ذلكم الصّحابي الجليل الذي سأل النبي ﷺ فقال: «يا رسول الله، إن **شرائع الإسلام قد كثرت علي، فمُرني بأمر أتشبث به**...» الحديث[1].

قلت: الجواب عن السؤال المذكور، مبني على اتخاذ **ثلاثة أسباب والتزامها**.

ولكن قبل ذلك وبعده، لا بد من تحصيل مقدمة ضرورية، وهي أن هذه الأسباب لا تؤتي أكلها، ولا تنتج ثمرتها إلا بضمان شرط مهم جدا، وهو **بناء الكيان الإيماني** في القلوب.

والبناء الإيماني لا بدّ له من **قاعدة فكرية تؤطّره، وقيم وجدانية تحتضنه، وشواهد عملية تصدّقه**، بمعنى آخر أن الذي اختل ميزان تفكيره، واضطربت القيم في وجدانه، وتناقضت المواقف في سلوكه لم يحسن بناء كيانه الإيماني.

وقد رأينا كثيراً من المسلمين أخلّوا بشروط الإيمان على المستوى الفكري والعملي، فحسبوا أن أداء العبادة يجزئ؛ وإن اقترن بالغش والخيانة والفساد وإضاعة الحقوق، وبعضهم يكاد يرادف

---

(1) سنن الترمذي: الدعوات، باب ما جاء في فضل الذكر، ح3375.

الإيمان بالعجز والاستسلام وقبول الضيم، وبعضهم تشعر فهومه وأوضاعه التاريخية باقتران الإيمان بالشقاق والاختلاف.

إن الشروط الفكرية والخلقية المتصلة بالإيمان هي التي تجعل صاحبها في مستوى يدرك فيه الحق إدراكاً واعياً مبصراً، يمتاز عن إدراك الناس جميعا، والمستوى الوجداني هو «**بطارية الفعل**» والدافع النفسي الذي يبعث على الإذعان والخضوع لكلمة الحق، والإقرار بها، والتزامها في المنشط والمكره، وإن تبع ذلك ما تبعه من لوم الناس وسخطهم كما قال سحرة فرعون: ﴿قَالُواْ لَن نُّؤۡثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلۡبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِي فَطَرَنَاۖ فَٱقۡضِ مَآ أَنتَ قَاضٍۖ إِنَّمَا تَقۡضِي هَٰذِهِ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَآ﴾[2]، فالإيمان هو الأسّ والمنطلق.

وهذه الحقيقة على وضوحها وجلائها، لا يبصرها كثير من الناس. وإن المشكلة الكبرى التي نعانيها اليوم هي تصحيح إيمان المسلمين، تصحيحاً يستوعب الفكر والوجدان والعمل على حدّ سواء. والأصل أن نبدأ بهذا الإصلاح قبل أي إصلاح آخر اقتداء برسول الله ﷺ.

إن بعض الفضلاء ينادون بأنماط من الإصلاح، ويلحّون على البداءة بها كالإصلاح الثقافي، أو الإصلاح السياسي، أو الإصلاح الاجتماعي، ولكن النبوة لم تبدأ بشيء من ذلك، وإنما بدأت بالإصلاح الإيماني، والتأسيس لكيان الإيمان وتشييده وتثبيته، فكان جديرا بأن يتبعه كل إصلاح، وأنا لا أستهين بشأن تلك الأنماط الإصلاحية وأهميتها، ولكن أقصد أن يكون منطلقها والقيم عليها **روحانية الإيمان**.

كان الرعيل الأول يتعلم الإيمان كما يتعلم السّورة من القرآن، وكان متمكّنا من ناصية هذا العلم المنيف حتى قال الله تعالى في صفوته وجلّته: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[3].

لاحظ معنى هذا التعبير ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ﴾، كأنهم دخلوا بكلّيتهم في الإيمان كما يدخل المرء داره، لقد اختلط الإيمان بلحومهم ودمائهم فضلا عن تمكنه من شغاف قلوبهم، فكانوا

(2) طه: 72.
(3) الحشر: 9.

سوانح الدهر وعجائب التاريخ...

عن حذيفة رضي الله عنه قال: «حدثنا رسول الله ﷺ حديثين قد رأيت أحدهما وأنا أنتظر الآخر، حدثنا أن الأمانة نزلت في جذر قلوب الرجال، ثم نزل القرآن، فعلموا من القرآن، وعلموا من السنة». الحديث[4].

وعن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: «كنا مع النبي ﷺ ونحن فتيان حزاير (شباب أقوياء) فتعلّمنا الإيمان قبل القرآن، ثم تعلّمنا القرآن فازددنا إيمانا»[5].

فالحاصل، أن من أراد أن يرتقي بنفسه، ويسير سيرا قاصدا إلى ربه، فليتعهّد هذا الأصل العظيم، والركن الأثيل، والشجرة المباركة: شجرة الإيمان.

وبذرة شجرة الإيمان تبدأ بتوجيه الإنسان جزءاً من ملكاته القلبية لله سبحانه: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[6]، وتقتضي هذه الخطوة المهمة تخليصاً لهذا الجزء وتعهداً وتزكيةً ومراقبةً مستمرة حتى ترتقي المدركات والمشاعر من وهدة الهوى والظلمة إلى سدّة الإيمان والنور، وفي هذا يقول علي رضي الله عنه: «إن الإيمان يبدأ لمظة بيضاء في القلب، فكلما ازداد الإيمان ازداد ذلك البياض، فإذا استكمل الإيمان ابيض القلب كله، وإن النفاق يبدأ لمظة سوداء في القلب، فكلما ازداد النفاق ازداد ذلك السواد، فإذا استكمل النفاق اسود القلب كله، وايم الله، لو شققتم عن قلب مؤمن لوجدتموه أبيض، ولو شققتم عن قلب منافق لوجدتموه أسود»[7].

والسؤال المهم الذي يستدعي الإجابة في هذا المقام يتعلّق بسبيل تنمية الإيمان في القلب واستكماله. والجواب عنه يتمثل في أن **السرّ الأعظم لزيادة الإيمان هو العمل الصالح**، ولذلك ورد في القرآن ذكر الإيمان مقرونا بالعمل الصالح في ستة وسبعين موضعا، جملة وفيرة منها بصيغة ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾[8]، ولم يرد فيه: (الذين آمنوا **وقالوا** الصالحات)، مما يدل على أن الإيمان يكون سلبياً غير ذي فائدة أو أثر إذا لم يكن له رصيد من عمل، قال الحسن البصري:

---

(4) صحيح البخاري (مع الفتح): (129/8) ح6497.
(5) السنة لأبي بكر الخلال: (5/53-54/ح1593).
(6) االتغابن: 11.
(7) السنة لأبي بكر الخلال: (5/56/ح1601).
(8) الطلاق: 11.

«ليس الإيمان بالتحلي ولا بالتمني، ولكن ما وقر في القلب وصدقته الأعمال، من قال حسنا وعمل غير صالح رده الله على قوله، ومن قال حسنا وعمل صالحا رفعه عمله، اقرأوا إن شئتم قوله تعالى: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلۡعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرۡفَعُهُۥۚ﴾[9]»[10]. ومن ثم، لا بد من البدار إلى العمل الصالح حتى يزداد الإيمان وينمو...

بيد أنه لاينبغي أن يفوتني هنا التنبيه إلى أنّ الأعمال التي يزيد بها الإيمان؛ **هي التي يتجاوب معها القلب وينفعل بها**، فالدعاء على سبيل المثال عبادة عظيمة بل هو مخّ العبادة، ولكن لا بد من حضور القلب فيه ليكون مفضيا إلى زيادة الإيمان؛ كما قال جلّ وعلا: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾[11]، وقال جل شأنه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ مِن قَبۡلِهِۦٓ إِذَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ يَخِرُّونَۤ لِلۡأَذۡقَانِ سُجَّدٗا ۩ وَيَقُولُونَ سُبۡحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعۡدُ رَبِّنَا لَمَفۡعُولٗا وَيَخِرُّونَ لِلۡأَذۡقَانِ يَبۡكُونَ وَيَزِيدُهُمۡ خُشُوعٗا۩﴾[12].

فواضح أن القرآن الكريم يثني هنا على انفعالهم بالطاعة، إذ حين يتلى عليهم القرآن تتأثر قلوبهم به، فيخرّون للأذقان سجّدا، ويسبحون ويبكون، ويزيدهم خشوعا.

وجماع القول: إنّ الإيمان لا يزيد إلا إذا تحرك القلب مع الطاعة، وتجاوب مع أسرارها وأنوارها، فإذا تم ذلك أزهرت ثمرات الإيمان، وأينعت آثاره في الوعي والسلوك.

---

(9) فاطر: 10.
(10) شعب الإيمان للبيهقي: (1/158ح65).
(11) الأعراف: 55.
(12) الإسراء: 107-109.